«الشِّعر ليس بتَرَف»

كتابة أودري لورد، ترجمته عن الإنكليزيّة ياسمين حاج

تؤثّر جودة الضوء الذي نعاين حياتنا به مباشرةً في المنتوج الذي نعيشه، وفي التغييرات التي نأمل بإدخالها إلى عيشنا. في داخل الضوء هذا نشكّل أفكارًا، نسعى عبرها نحو سحرِنا ونحقّقها. هذا هو الشِّعر بصفته إنارة، لأننا -عبر الشعر- نمنح الأفكار أسماء تفتقر -حتّى لحظة حضور القصيدة- إلى الاسم والشكل، هي على وشك الولادة، لكنّها محسوسة مسبقًا. يولّد تقطير التجربة -التي منها ينبع الشعر الحقيقي- الفِكرَ، مثلما يولّد الحلمُ المفهومَ، ومثلما يولّد الإحساسُ الفكرةَ، ومثلما تولّد المعرفةُ الفهمَ (أي تسبقه).

فيما نتعلّم تحمّل حميميّة المعاينة والازدهار داخلها، فيما نتعلّم استخدام منتوجات تلك المعاينة لغاية استحضار القوّة في عيشنا، تبدأ تلك المخاوف التي تتحكّم بحياتنا، والتي تشكّل أنواع صمتنا، بفقدان سيطرتها علينا.

داخل كلّ منّا نحن النساء مكانٌ مظلم تستيقظ روحنا الحقيقية فيه وتنمو، "جميلةٌ وقاسية مثل الكستناء/دعامات أمام كابوسنا عن الضعف"[1] والعجز.

إنّ أمكنة الاحتمالات في داخلنا مظلمة لأنّها قديمة وخفيّة؛ لقد بقيت على قيد الحياة ونمت بقوّة عبر الظلمة. تحمل كلّ منّا في الأعماق هذه مخزونًا هائلًا

[1] من كتاب «امرأةٌ وأمٌّ سوداء»، صدر لأوّل مرّة بالإنكليزية في «أرض يعيش فيها الآخرون» («دار نشر برودسايد»، ١٩٧٣) وضمن المجموعة الشعرية «قصائد مختارة: قديمة وجديدة» (و. و. نورتن والشركة، نيويورك، ١٩٨٢)، ص. ٥٣.

مفردات
Mophradat

من الإبداع والقوّة، من الأحاسيس والمشاعر غير المفحوصة وغير الموثّقة. إنّ مكان قوّة المرأة في كلّ منّا لا هو أبيض ولا سطحيّ؛ هو داكن وقديم وعميق.

عندما نرى العيش وفق النموذج الأوروبيّ، بصفته مشكلة وحسب يجب حلّها، نعتمد عندها على أفكارنا وحسب لتحرُّرنا، لأنّ الآباء البيض قالوا لنا إنّ تلك هي الأمور القيّمة.

لكن عندما نعزّز اتّصالنا بمنظورنا القديم والأسود وغير الأوروبي، عن العيش بصفته حالة يجب تجربتها والتفاعل معها، نتعلّم أكثر وأكثر كيف نقدّر مشاعرنا، وكيف نحترم مصادر القوّة المخبّأة هذه، من حيث تأتي المعرفة الحقيقيّة ومن حيث يأتي الفعل الذي يدوم.

في هذه اللحظة من الزمان، أعتقد أنّنا نحن النساء نحمل في أنفسنا إمكانية دمج هذين التوجهين -بصفتهما حجر أساسٍ لبقائنا على قيد الحياة- وأنّنا نقترب من هذا الدّمج عبر شِعرنا. أتكلّم هنا عن الشعر بصفته الكشف عن التجربة أو تقطيرها، لا بصفته لعب الكلام المعقّم ذلك الذي -كثيرًا ما- شوّه عبره الآباء البيض كلمة الشِّعر ومعناها، ليتمكّنوا من تورية أمنيتهم الملحّة بالتمتّع بخيال خالٍ من البصيرة.

بالنسبة للنساء إذًا، الشعر ليس بترف. نحتاجه بصورة ماسّة لوجودنا. فهو يشكّل جودة الضوء الذي نتنبأ من خلاله بآمالنا وأحلامنا في البقاء على قيد الحياة وإحداث التغيير، والأخير حُوّل إلى لغة ومن ثمّ إلى فكرة ومن ثمّ إلى فعلٍ ملموس أكثر.

الشعر هو الطريق الذي يعيننا على تسمية غير المسمّى لتمكين التفكير فيه. تُرَصّف أبعد آفاق آمالنا ومخاوفنا الخارجيّة بحصى أشعارنا، المنحوتة من صخر تجارب حياتنا اليوميّة.

مفردات
Mophradat

فيما تصبح مشاعرنا -واستكشافاتنا الحقيقية لها- معروفة، تصبح هي ملاذًا آمنًا وحصونًا وأراضٍ مُنبتة لأكثر الأفكار الراديكاليّة والجريئة، وتصبح منزلًا يقطن فيه الاختلاف الضروريّ للتغيير ولمَفهَمة أيّ فعل جدّي. يمكنني الآن تسمية عشر أفكار على الأقلّ، كنت سأجدها لا تُطاق أو غير مفهومة أو مخيفة لو لم تصل إلى عتبه الأحلام والقصائد. هذه ليست بوهم فارغ بل المعنى الحقيقي لما "أشعر بأنّه الصّواب". يمكننا تدريب أنفسنا على احترام إحساسنا وتطويعه (تحويله) إلى لغة نظيرة لتلك الأحاسيس لتمكين مشاركتها. وحيث لم تُولَد تلك اللغة بعد فإنّ شِعرنا هو ما يساعد على صياغتها. الشِعر ليس حلمًا أو رؤية فقط إنّما هو المهندِس المعماري لحياتنا.

الإمكانات لا هي أبديّة ولا هي فوريّة، كما أنّه لا يسهل الحفاظ على الإيمان بنجاعتها. قد نعمل أحيانًا زمنًا طويلًا ونكدّ لتأسيس جبهة واحدة من المقاومة الحقيقيّة، لنقاوم الميتات التي يُتوقّع لنا عَيشها، لنراها تُهاجَم أو تُهدَّد بالإشاعات التي عوّدونا على رهبتها، أو بتقهقهر تلك الموافقات التي نبّهونا إلى نشدانها لنجد حسّنا بالأمان. نرى قيمتنا تُقلَّل ويُستهتَر بها عبر الاتهامات الزائفة بلُطفها، عن طفوليّتنا وعدم عالميّتنا وعن التمركز في ذواتنا وعن شهوانيّتنا. ومن يسألنا: هل أنا أغيّر في هالتك أو في أفكارك أو أحلامك؟ أو هل أنا مجرّد آخذٌ بدفعك نحو اتخاذ أفعالٍ مؤقّتة ومبنيّة على ردّ الفعل؟ (وحتّى هذا الأخير ليس بمهمّة بسيطة، إنما علينا رؤيته ضمن سياق التعديل الحقيقي لقوام حياتنا.) لقد قال لنا الآباء البيض، "أنا أفكّر، إذًا أنا موجود"؛ وتهمس الأمّهات السود في داخل كلٍّ منّا -الشاعرات- في أحلامنا بما يلي: "أنا أشعر، إذًا يمكنني أن أكون حرّة". يبتكر الشِعر اللغة للتعبير عن المطلب والوعي الثوري ويشرعنه، كما يعبّر عن تحقيق تلك الحرّيّة ويشرعنها. لكنّ التجربة علّمتنا أنّ الفعل في الوقت الحاضر هو كذلك ضروريّ على الدوام. لا يمكن لأطفالنا الحلم إن لم يعشنَ ويعيشوا ولا يمكن لأطفالنا العيش إن لم

مفردات
Mophradat

يتغذّين ويتغذّوا. ومن غيرنا سيطعمهمنّ الغذاء الحقيقي، الذي بغيره لن تختلفَ أحلامهمنّ عن أحلامنا؟

نخدّر أحيانًا أنفسنا بأحلامِ أفكارٍ جديدة. الرأس سينقذنا. الدماغ وحده سيحرّرنا. لكن لا أفكار جديدة متأهبة لتنقذنا نحن النساء، بصفتنا بشرًا. لا وجود إلّا للأفكار القديمة والمنسيّة والتوليفات الجديدة واستقراءات وإدراكات في داخلنا مع الشجاعة المتجددة لتجريبها. وعلينا تشجيع أنفسنا دومًا وبعضنا البعض على محاولة القيام بالهرطقات التي تمليها علينا أحلامنا، والتي تستهتر بها بعض أفكارنا القديمة. وفي طليعة تقدّمنا نحو التغيير يكون شِعرنا فقط هو الذي يلمّح إلى إمكانيّة تحقُّق كلّ ذلك. تصيغ أشعارنا الدلالات عن أنفسنا، وما نشعر به في دواخلنا، وما نتجرأ على جعله حقيقيًا (أو ما نقوم بالعمل على جعله متوافقًا)، ومخاوفَنا، وآمالَنا، وأكثر أهوالنا العزيزة علينا.

لأنّه في داخل البُنى التي تُعرّف بالأرباح وبالسلطة الخطّيّة وبالتجريد المؤسسي لإنسانيّتنا، لم يُكتب لأحاسيسنا البقاء على قيد الحياة. فقد حُفظت بصفتها ملاحقَ لا مفرّ منها، أو بصفتها تسليات ممتعة، أي كُتب للأحاسيس الركوع أمام الفكر كما كُتب لنا الركوع أمام الرجال. لكنّ النساء بقينَ على قيد الحياة. بصفتهنّ شاعرات. ولا آلامَ جديدة تحت الشمس، فقد سبق وأحسسنا بها كلّها. لقد خبّأنا تلك الحقيقة في نفس المكان الذي خبأنا فيه قوّتنا. وهي موجودة في أحلامنا، وأحلامنا هي التي تدلّنا إلى طريق الحريّة. وهي تصبح قابلة للتحقيق من خلال أشعارنا، التي تعطينا القوّة والشجاعة لنرى ونحسّ ونتكلّم ونتجرّأ.

مفردات
Mophradat

إن صدّقنا أنّ ما نحتاجه لنحلم -ولنحرّك أرواحنا بعمق ومباشرةً نحو الوعد وعبره- تَرَفٌ، نكون قد تخلّينا عن لبّ سلطتنا -ومنبعها- وعن نسائيّتنا؛ أي نكون قد تخلّينا عن مستقبل عوالِمنا.

ما من أفكار جديدة تحت الشمس. ثمّة فقط طرق جديدة لجعلها محسوسة، لمعاينة ما تعنيه (أو ما تحسِّسُنا به) حقًا أفكارنا يوم الأحد في الساعة السابعة صباحًا، أو بعد الفطور المتأخر، أو في أثناء ممارسة الحبّ الهائج، أو في أثناء الحرب، أو في أثناء المخاض؛ بينما نتعذّب نحن بلهفاتنا القديمة ونعترك مع التنبيهات والمخاوف القديمة المتعلّقة بصمتنا وعجزنا ووَحدتنا، وبينما نتذوّق إمكاناتنا الجديدة وقوانا الجديدة.

صدر هذا النص لأوّل مرّة بالإنكليزيّة بعنوان «*Poetry is not a luxury*» في العدد الثالث من مجلّة «كريسواليس: مجلّة للثقافة النسوية» في عام ١٩٧٧ ومن ثمّ عام ١٩٨٤ في كتاب «*Sister Outsider*»، وهو مجموعة من النصوص من كتابة أودري لورد.

أودري لورد كانت "أم ومحاربة وشاعرة سوداء ومثليّة" كما وصفت نفسها، وُلدت عام ١٩٣٤ في الولايات المتحدة، حيث عاشت ودرّست وكتبت.

مفردات
Mophradat